دُعَـاةُ العَـرَبِ فى الإسـلام

« ٢ »

عمرو بن العاص للبيعة

«ما يَنْبَغى لأبى عبد الله
أن يمشى على الأرض إلا أميراً»

[عمر بن الخطاب]

◘ عمرو بن العاص فى سطور ◘

يحدثنا التاريخ عن نشأته فيقول : إنه نشأ فى بطن من البطون القرشية المشهورة ، وهم «بنو سهم» .

وقد كانت إليهم الحكومة والأموال المحجَّرة التى سموها لآلهتهم ، كأنها الأوقاف فى العصور الإسلامية ، وكان الرؤساء من بنى سهم من «نظار الأوقاف» .

ويؤخذ من هذه المهام أن المرجع فى حكومة بنى سهم كان إلى اللباقة فى تناول الأمور ، والتلطف فى حسم الشقاق ، والتغلب على حرج النفوس فى الشئون الدقيقة ، وذلك كله يحتاج إلى الرجل «الأريب» الذى يعرف «من أين تؤكل الكتف» ويترفّق بعلاج النفوس ، وتناول الأمور[1] . وكذلك كان «عمْرو بن العاص» .

خطب عمر بن الخطاب «أم كلثوم» بنت أبى بكر إلى أختها «أم المؤمنين» عَائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت له : الأمر إليك !

ثم سألت أختها فأبته ، وهى تقول : لا حاجةَ لى إليه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ !

قالت : نعم ؛ إنه خشن العيش شديد على النساء !

وهنا مسألة دقيقة !!

أمير المؤمنين يُرفض ، ولا ينبغى أن يُواجَه بالرفض ، وإن كان لا سبيل إلى إكراه «أم كلثوم» على قبوله !

فلجأت السيدة عائشة إلى عمرو بن العاص ليحتال فى الأمر برفقه ودهائه ، فجاء عمر ، وفاجأه قائلاً : بلغنى خبر أعيذك بالله منه !

قال : ما هو ؟ قال : خطبتَ أمَّ كُلثوم بنتَ أبى بكر !

قال : نعم . أفرغبت بى عنها ، أم رغبت بها عنى ؟

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد .

قال : لا واحدة .

ولكنها حدَثَة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك ، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شيء فسَطَوْتَ بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !

ولا شك أن عمر قد فطن إلى ما وراء هذه الوساطة ، وفهم أن ابن العاص لا يقدم عليها من عند نفسه .

فسأله كأنه يستطلع ما وراه : كيف بعائشة وقد كلمتُها ؟

قال : أنالك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله ـ ﷺ ـ.

ويحدثنا التاريخ عن إيفاد عمرو إلى نجاشى الحبشة لإقناعه بتسليم مَنْ قِبَله من المسلمين إلى مشركى مكة ، وهو أمر فيه من المساس بأصول الضيافة ما تصعب المفاتحة فيه ، فضلاً عن الإقناع به ، إلا أن تكون لباقة ، ورفق مدخل ، وقدرة على التخلص السريع ويحدثنا التاريخ عن إيفاد عمرو إلى أخوال أبيه فى عهد الإسلام لإقناعهم بالخروج من دينهم ، والدخول فى الدين الجديد !

كما يحدثنا التاريخ عن حكومة عمرو بين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حين اختلفا على وادٍ يدعيان ملكيته بالمدينة .

وقد جاء فى الأثر أن النبى ـ ﷺ ـ أمر عمْراً بالفصل بين[1] رجلين اختصما إليه ؛ فكأنه عُرِف بهذه المقدرة وبقيت له شهرتها فى حضرة النبى ـ ﷺ ـ.

(١) عمرو بن العاص للعقاد .. ولم أقف على هذا الأثر فيما تحت يدى من مراجع .

◘ مَهَامّ قام بها ◘
بتكليف من النبى ـ ﷺ ـ وأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

◄ مهامّ جِسام !

تقول كتب السيرة : إن النبى ـ ﷺ ـ ندبه لغزوة «ذات السلاسل» ولهدم الصنم «سواع» ولدعوة «جيفر وعباد» أمرى عُمَان إلى الإسلام ، ثم أقامه على الصدقة فى تلك الإمارة لما لمحه فيه من استعداد وقدرة على مواجهة تلك المهمات ! فتعال نتابع خطواته .

◄ غزوة ذات السلاسل :

كان أخوال العاص بن وائل من قضاعة ، ونما إلى النبى ـ ﷺ ـ أنهم يتأهبون للزحف على المدينة ، ويعيشون فى الطريق ، فندب لهم عَمْراً يتألفهم إن استطاع ، فإن لم يستطع فهو بأن يزجرهم أولى من أن يجىء زجرهم على يد غيره ، وأرسله فى سَرِيّة من ثلثمائة رجل سار بهم حتى بلغ ماءً يسمى «السلاسل» فاستطلع فإذا القوم نافرون مصرون على جفاء ، وإذا بهم أكبر عدداً من أن يتصدى لهم بجيشه الصغير ، فاستمدّ[1] النبى ـ ﷺ ـ فأمدّه بكتيبة على رأسها «عبيدة بن الجراح» ، وفيها «أبو بكر الصديق» ، و «عمر بن الخطاب» ، وهم أجل الصحابة ، وأقربهم إلى خلافة النبى ـ ﷺ ـ ، وأمرهم أن يطيعوه إذا أبى عليهم الطاعة ، فبلّغهُ النبى ـ ﷺ ـ بذلك مُنَاه من الإمارة . وانهزمت قضاعة منذ الوقعة الأولى .

ولقد أراد جيشه أن يتعقّب المنهزمين فنهاهم عن ذلك ، مُرَاعياً ذمة القرابة ، واستبقاء الرحم جامعاً بين المصلحة والمودة .

---

(١) طلب منه مدداً يعينه على مواجهة الأعداء .

وقد أراد جيشه أن يوقد ناراً للاصطلاء ليلاً ، فتوعدهم لئن فعلوا ليقذفن بمن أضرم ناراً فى النار التى أوقدها ، ووسطوا أبا بكر فأصر على رأيه .

وعندما شكوه إلى النبى ـ ﷺ ـ كان له عذره البَيّن حيث قال : كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد .

وكرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قِلّتهم فيكرَّ عليهم بعد فراره ! إنه الدهاء !!

◄ بعثته إلى سواع :

بعثه الرسول ـ ﷺ ـ لهدم ذلك الصنم الذى عبدته «هذيل» فى الجاهلية .

وكان على مقربة من مَكة يقصدونه للحج والعبادة وقضاء النذور .

وكانت له خزانة يودع فيها ما يودع من النذور ، ومن المال المحجّر الذى وكل به بنو سهم قبل الإسلام ، فكان اختيار زعيم من بنى سهم فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك البعثة التى له مأرب فيها .

سأله سادن[1] الصنم : ماذا تريد !؟

قال : أمرنى ربى أن أهدمَه .

قال السّادن : إنك لا تقدر على ذلك .

فتقدم عمرو إلى الصنم ، وكسره ، وأمر أصحابه بهدم الخزانة ، فإذا هى خاوية !

فأقبل على السادن يسأله : كيف رأيت ؟

قال : أسلمت لله رب العالمين .

◄ رسالته إلى عُمَان :

كانت رسالته إلى عُمَان مجالاً مستجمعاً لكل ما فُطِر عليه من اللباقة ، والدهاء والجرأة ، وحب الرئاسة والثراء .

---

(١) السّادن : الخادم . وأصل السادن : خادم الكعبة .

كتب النبى ـ ﷺ ـ إلى «جيفر وعبّاد» ابنى الجُلندى كتاباً يدعوهما فيه إلى الإسلام قال فيه :

«بعد السلام على من اتبع الهدى ..

أما بعد .. فإنى أدعو كما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ؛ فإنى رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين .

وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيْتُكما ، وإن أبيتما أن تُقِرَّا بالإسلام فإن مُلْكَكُما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ...» .

فحمل «عمرو» الكتاب ، وكان عند ظن النبى ـ ﷺ ـ به فى مقدرته ودهائه ، فبدأ بأصغر الأخوين : «عباد» ؛ لأنه لم يكن على ولاية الملك ، فهو أقرب إلى حسن الإصغاء ، فاحتفى به وأصغى إليه ، ووعده أن يوصله إلى أخيه ، ويمهد له عنده .

ثم لقى «جيفراً» ، فإذا هو أصعب مِراساً من عباد ، فطفق يسأل عمراً عن نفسه ، وعن أبيه هل أسلم من قبله أو مات على غير الإسلام ؟

وسأله عما صنعت قريش ، فلخص له موقفها أوقع تلخيص ، حيث قال له : «إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف» .

ثم عقب بكلام وجيز فيه وَعْد وَوَعِيد ، فقال له : «وأنت إن لم تسلم اليوم ، وتتبعه يوطِئْك الخيل . فأسلم تسلم فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الإسلام ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

وفى هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال» .

وأتبع هذا الوعيد بما يوائمه من قلة الاكتراث لجيفر حين لج فى عناده ، وأعلنه بمواجهة المسلمين دون أرضه ، وصدهم عن حوزة ملكه ، فانصرف وقد ألقى فى روع عبّاد ما ألقى ، فإذا بعباد ، قد أتم له ما بدأه من النذير والنصيحة ، وإذا

بالأخوين ومن تبعهما مستجيبون للإسلام .

وكان جزاء «عمرو» على هذا التوفيق أن عقد له النبى ـ ﷺ ـ ولاية الزكاة يأخذها من الأغنياء ، ويفرقها على الفقراء ، وله منها نصيب يرضيه .

أليس هو العامل عليها ؟!

وقد أبقاه النبى ـ ﷺ ـ على ولاية الصدقة حتى توفاه الله ، فلم يشأ «أبو بكر» أن يعزلَه عنها إلا برأيه ومرضاته إيثاراً للسنَّة التى التزمها من إقرار كل ما أقره النبى ـ ﷺ ـ فى حياته : «وأن لا يحل عقالاً عقله رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولا يعقل عقالاً لم يعقله » .

كما أوصى عَمْراً نفسه يوم أبلغه نعى النبى ـ ﷺ ـ.

◄ موقف عمرو من حروب الردة !

عندما جاءت حروب الردة كان موقفه منها الموقف المنتَظَر من مثله ..

فقد كانت ثورة على الإسلام .. وثورة من البادية على الحاضرة .. وثورة من القبائل على قريش .. وثورة على الزكاة من فرائض الدين خاصة .

وإن أحق الناس ببغض تلك الردة لهو «عمرو بن العاص» المسلم القرشى العامل على الزكاة .

فلما كان فى طريقه من عُمان إلى المدينة نزل ببني عامر فإذا بزعيمها «قُرّة بن هُبيرة» يهم بالرِّدة ويقول له :

ياعمرو ! إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أعطيتموها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم فلم تأخذه فى الأمر هوادة ، بل اشتد فيه كما اشتد «أبو بكر» وصاح بزعيم بنى عامر : «ويحك ! أكفرت ياقرة ؟! تخوفنا بردة العرب !

فوالله لأوطئن عليكم الخيل فى حفش أمك» (أى : فى خبائها) .

ثم أبى إلا أن ينبىء الخليفة بما سمع من قرة ، غير مُبْقٍ منه بقية يسترها مخافة

عليه ، فلما جيء بالرجل مأسوراً ، وانطلق «عمرو» يروى ما سمع منه ، ووصل إلى ذكر الزكاة صاح به الرجل : مهلاً ياعمرو . فقال : كلّا والله ! لأخبرنه بجميعه .

وكان هذا الموقف منه أول ما استحق به الثقة والرعاية فى عهد الخلافة ، وأصبح عمرو من أقرب المقربين فى العهد الجديد .

◄ حرب قضاعة :

ويختار الخليفة «عمراً» لحرب قضاعة ، فقد تولى حربها من قبل فى عهد النبى – ﷺ –، وكان الخليفة أبو بكر يومئذ من جنوده ، فقام بمهمته خير قيام ولم يرجع عنها إلا وقد سلمت بحق الزكاة وثابت إلى شرعة الإسلام .

◄ مهمة أخرى استطلاعية :

يروى الحافظ شمس الدين الذهبى أنه قدم رسولاً من أبى بكر إلى «هرقل» ، ويغلب على الظن أنه إنما أوفد من قبل الخليفة لاستطلاع حال العرب فى طريق الشام مستنفراً إياهم إلى حرب الروم إذا وقع المتوقع من الحرب بينهم وبين المسلمين ، فذلك أشبه المهام بما يندب له عمرو بن العاص .

◄ لا أعود لمثلها أبداً !!

توجه «عمرو بن العاص» حيث فتح قيسَاريّة[1] إلى مصر ، وبعث إلى عِلْجها[2] ، فأرسل إليه : أن أرسل إلىّ رجلاً من أصحابك أكلمه .

فنظروا فقال عمرو : ما أرى لهذا أحدا غيرى ! فخرج ودخل على العِلْج ، فكلمه ، فسمع كلاماً لم يسمع مثله قط ! فقال : حدثنى هل فى أصحابك مثلك ؟

---

(١) هناك مدينتان بهذا الاسم فى فلسطين والروم . والمراد هنا التى من أعمال فلسطين . معجم البلدان [١٣١/٤] .

(٢) العِلج : الرجل من كفار العجم . القاموس .

قال : لا تسَلْ عن هوانى عليهم ؛ إلا أنهم بعثونى إليك ، وعرضونى لما عرضونى ، لا يدرون ما تصنع بى . فأمر له بجائزة ، وكسْوة ، وبعث إلى البواب : إذا مرّبك فاضرب عنقه ، وخذ ما معه .

فخرج من عنده ، فمر برجل من نصارى العرب من غسان ، فعرفه ، فقال : ياعمرو ، إنك قد أحسنت الدخول ، فأحْسن الخروج .

فرجع فقال له الملك : ما ردّك ؟

قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجده يسع بنى عمى ، فأردت أن أجيئك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، وتكسوهم هذه الكُسْوة ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد .

قال : صدقت ؛ فاعجَل بهم ، وبعث إلى البواب : **«أنْ خلِّ سبيلَه ، فخرج عمرو ، وهو يلتفت حتى إذا أمن قال : لا أعود لمثلها أبداً ، فما فارقها عمرو حتى صالحه ، فلما أُتى بالعِلج قال : أنت هو ؟**

قال عمرو : نعم على ما كان من غَدْرِك !!

▣ نظرات صائبة فى الناس والحياة ! ▣

◄ الداهيتان وقميص عثمان !

نصب معاوية قميص عثمان على المِنبر ؛ فبكى أهل الشام . فقال : هممت أن أدعه على المنبر !

فقال له عمرو : إنه ليس بقميص يوسف ، وإنه إن طال نظرهم إليه وبحثوا عن السبب ، وقفوا على مالا تحب !، ولكن لَذِّعْهم بالنظر إليه فى الأوقات !!

◄ ذنب الحجاب !

وقال لابنه وقد وَلِىَ ولاية :

انظر حاجبك ، فإنه لحمُك ودمُك ، فلقد رأينا بصِفِّين وقد أشرعَ قومٌ رماحَهم فى وجوهنا ، مالنا ذنب إليهم إلا الحجاب !

◄ أسراره :

وقال : ما وضعتُ سرى عند أحد قطّ فأفشاه ، فلُمتُه ؛ لأنى أحق باللوم أن كنت أضيَقَ صدراً منه !!

وقال : إذا أنا أفشيت سرى إلى صديقى فأذاعه فهو فى حل ، فقيل له : وكيف ؟

قال : أنا كنت أحق بصيانته !!

◄ طلحة والزبير يَحْتَكِمَانِ إليه :

كان بين طلحة بن عبيد الله والزبير مدارأة[1] فى وادٍ بالمدينة ، فقالا : نجعل بيننا عمرو بن العاص ، فأتياه ، فقال لهما : أنتما ـ فى فضلكما ، وقديم سوابقكما ، ونعمة الله عليكما تختلفان ، وقد سمعتما من رسول الله ـ ﷺ ـ مثل ما سمعت ، وحضرتما من قوله مثل الذى حضرت ، فيمن اقتطع شبرا من أرض أخيه بغير حق أنه يُطَوَّقه من سبع أرضين[2] .

والحكم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحَكَم إذا جارى رُزِئَ فى دينه .

والمحكوم عليه إذا جير عليه رُزِئَ عَرَضَ الدنيا . إن شئتما فأدْلِيا بحجتكما . وإن شئتما فاصطلحا ، وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضا .

◄ تفويت الغرض على عدوه :

قال المدائنى : جُعِل لرجل جُعْل[3] على أن يسأل عمرو بن العاص ـ وهو على المنبر ـ عن أمه !

فلما قام على المنبر قال له : ياعمرو ، من أمك ؟

---

(١) مدارأة : منازعة ومخاصمة . كل منهما يدرأ أو يدفع الآخر .

(٢) فى صحيح البخارى [٣ : ١٣٠] « من ظلم قيد شبر من الأرض .. » . أما صحيح مسلم فقد جاء فيه «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه سبع أرضين يوم القيامة» . مسلم شرح النووى [٤٨/١١] .

(٣) جُعْل : مكافأة ، ومبلغ من المال نظير قيامه بأمر خطير .

قال : سَلْمى بنت خزيمة ، تُلَقّب بـ «النابغة» من بنى جلان من عنزَة ، أصابتها رماح العرب ، فصارت للفاكه بن المغيرة[1] ، ثم صارت إلى عبد الله بن جُدعان[2] ، ثم صارت للعاص بن وائل[3] ، فولدت فأنجبت ! اذهب فخذ جُعْلك الذى جُعِل لك !!

◄ رسائل متبادلة بين معاوية وعمرو

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص ـ وبلغه عنه أمر : وفّقك الله لرشدك ! بلغنى كلامك ، فإذا أوله بَطَر ، وآخره خَوَر ، ومن أبْطَره الغنى أذلّه الفقر ! وهما ضدان مخادعان للمرء عن عقله . وأولى الناس بمعرفة الدواء من يبين له الداء . والسلام .

فأجابه عمرو : ... طاولتك النعم ، وطاولت بك علو إنصافك ، يؤمن سطوة جَوْرك .

ذكرت أنى نطقت بما تكره وأنا مخدوع ، وقد علمت أنى مِلْت إلى مَحَبّتك ، ولم أُخْدَع .

ومثلك شكَر مَسْعى مُعتذر ، وعفا عن زَلّةِ مُعترف !

◄ أحسن كل شىء !

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ يوماً لجلسائه ، وفيهم «عمرو بن العاص» : ما أحسنُ كلّ شىء ؟

فقال كل رجل برأيه ، وعمرو ساكت ، فقال له عمر : ما تقول ؟

---

(١) الفاكه بن المغيرة ، بن عبد الله المخزومى أحد الفصحاء فى الجاهلية ، وعم خالد بن الوليد [الأعلام : ٥ ـ ٣٣٠] .

(٢) عبد الله بن جُدعان التيمى القرشى : أجد الأجواد المشهورين فى الجاهلية [الأعلام : ٤ ـ ٢٠٤] .

(٣) العاص بن وائل بن هاشم : أبو عمر بن العاص . أدرك الإسلام ولكنه مات كافراً . [الأعلام ٤ ـ ١١]

قال : الغمَرات ، ثم ينجلين[1] .

◄ عمرو والشدائد :

وكان يقول : عليكم بكل أمر مَزْلقة مَهْلكة ، أى : عليكم بجِسَام الأمور .

◄ عمرو لا يعرف الملل !

ونُظِر إليه على بَغْلةٍ قد شمِطَ وجهها هَرَماً[2] ، فقيل له : أتركب هذه وأنت على أكرم ناخرة[3] بمصر ؟! فقال :

- لا مللَ عندى لدابتى ما حملت رَحْلى .
- ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى .
- ولا لصديقى ما حفظ سرى .
- إن الملل من كواذب الأخلاق .

◄ أمنية لم تتحقق !

قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ لوددْت أنك قتلت يوم الجمل ! فقالت : ولم ؟ لا أبالك !

قال : كنتِ تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر تشنيع عَلَى علىّ[4] .

◄ نظرة عمرو إلى العلم :

وقال لبنيه : اطلبو العلم ، فإن استغنيتم كان جمالاً وإن افتقرتم كان مالاً .

◄ الخير فى رأيه !

قال عمرو : يابُنَىّ ..

---

(١) الأزمات والشدائد حينما تنفرج وتزول . والغمرات : جمع غَمْرة .
(٢) شمط وجهها : شاب .
(٣) والناخرة الخيل لأنها تنخر ، وكذا الحمير لركوب أهل مصر لها آنذاك .
(٤) نثر الدر للآبى .

- إمام عادل خير من مطرٍ وابل .
- وأسَدٌ حَطوم[1] خيرٌ من سُلطان ظَلُوم .
- وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم .
- ولَأن تُمازِحَ وأنت مجنون خير من أن يمازحك مجنون .
- وزَلّةُ الرجل عظم يُجبَر .
- وزلّة اللسان لا تبقى ولا تذر !
- واستراح من لاعقلَ له !

◄ مَن أخو الحرب ؟!

كتب إلى معاوية : إنه ليس أخو الحرب من يضع نُحورَ الحشايا[2] عن يمينه وشماله ، ويعاظم الأكلاء اللّقَمَ ؛ ولكنه ، من حَسَر عن ذراعيه ، وشَمّر عن ساقيه ، وأعدّ للأمور آلاتها ، وللفرسان أقرانها[3] .

◄ عمرو الخبير بالجوانب النفسية !

وقال عمرو لمعاوية :

لايكن شيء آثَرَ عندك فى أمر رعيتك ، وتكون له أشد تفقداً منك كخصاصة الكريم[4] أن تعمل فى سدها ، وكطغيان اللئيم أن تَقْمَعه[5] .

« واستوحِشْ من الكريم الجائع[6] ، ومن اللئيم الشبعان ؛ فإن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع » .

◄ مَنِ العاقل فى نظره ؟

وقال : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشرّين !

---

(١) يقال : حطم الأسد الماشية : عاث فيها .
(٢) الوسائد اللينة .
(٣) الأقران : جمع قِرن : النظير والمماثل .
(٤) الخصاصة : الجوع .
(٥) توقفه عند حده وتدحره .
(٦) لاتأنس إليه ، ولا تطمئن .

◄ ثمار مرة !

وقال : جُمع العجز إلى التوانى ، فنُتِجَ بينهما «الندامة» . وجُمِع الحزمُ إلى الكسل ، فخرج بينهما «الحرمـان» .

◄ نظرته إلى الخلافِ والاقتتال :

قال لعبد الله بن عباس يوم صِفّين : إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ! ، وقد بلغ بنا وبكم ما ترى !

وما أبقت لنا هذه الحرب حياءً ولا صبراً ، ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ! ؛ لكننا نقول : ليتها لم تكن ، فانظر فيما بقى بعين ما مضى ، فإنك رأس هذا الأمر بعد على ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاوَرٌ مأمون ، وأنت هو[1] .

◘ صـورة عمـرو ◘

يؤخذ من جملة الأقوال التى وُصِفَ بها أنه كان : أدعج أبلج ، وافر الهامة ، ربعة ، أقرب إلى قصر القامة ، يخضب بالسواد .

عليه مهابة وشمائل نباهة وسيادة كما يدل عليه قول عمر ـ رضى الله عنه ـ فيه : «ماينبغى أن يمشى أبو عبد الله إلا أميراً» .

وكما يدل عليه قوله حين لام الناسُ معاويةَ على تقديمه «عَمراً» وبلغ «عَمراً» ملامتُهم فقال : «قد علمتم أننى أنا الكرّار فى الحرب ، وأننى الصَّبور على غِيَرِ الدهر ، لا أنام عن طلبٍ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة .. ولَعَمْرى لست بالوانى أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصّماء لا شِفَاءَ لمن عضّته ، ولا يرقُدُ من لسعته .

وإنى ما ضربت إلا فريت ، ولا يخبو ما شببت !

---

(١) هذه رواية نثر الدر للوزير الآبى ، أما العقد الفريد فقد جاء فى الجزء الرابع/١٣ أن هذا القول بعد مقتل على . وينفيه ما ورد فى أثنائه .

عرفنى أصحاب يوم الهرير ـ بحرب صِفّين ـ أننى أشدهم قلباً ، وأثبتهم يدا . أحمى اللواء ، وأذود عن الحمِى فكأننى وشائنى عند قول القائل :

وهل عجب إن كان فرعى عسجداً

إذا كنت لا أرضى مفاخرة العشب؟!

لقد كان فيه طموح إلى الهيبة والثراء ، ويقول الأستاذ العقاد : «ما نخاله وقف فى الطموح عند حد ، ولا قعد عن الخلافة وهو مختار بل قد طمح إليها ، وأعد عدته لإقصاء بنى أمية عنها ، فلما أيأسه مغمز النسب ، ورجحان «بنى أميّة» على «بنى سهم» فى العصبية القرشيّة طوى الصدر على كظم ، وقعد عنها وهو كاره يُعَزّى النفس بقوله المأثور عنه : «إن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة !!»

وكان سعيه إلى الرئاسة والمال بادياً منه فى الإسلام كما بدا منه فى الجاهلية ، فلم يعرف له موقف قط نزل فيه عن الرئاسة باختياره وكان عمرو بن العاص يتحرج من إسقاط هيبته ونسيانه سمتَه .

◄ فخر عمرو بأبيه !!

كان عمرو بأبيه جِدّ فخور ، حتى لقد كان يفخر به على الخلفاء كعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان .

فلما أرسل إليه عمر بن الخطاب من يحاسبه ويشاطره ماله غضب وقال للرسول ـ ﷺ ـ: «قبّح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل . والله إنى لأعرف الخطّاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ، وما منهما إلا فى نَمِرَة[1] لا تبلغ رسغيه . والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزرراً بالذهب !!» .

ثم خشى العاقبة فاستحلف رسولَ عمر إليه لَيَكْتُمَنّ عليه ما قال بأمانة الله !

ولما عزله عثمان من ولاية مصر دعاه فأنبه وقال له : استعملتك على ظَلْعِك[2] وكثرة القالة فيك ! .

---

(١) نمرة : كساء فيه خطوط بيض وسود

(٢) على ما فيك من ضعف .

فقال عمرو : قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض ، واحتدم الجدل بينهما ، فهم «عمرو» بالخروج مغضباً وهو يقول :

قد رأيت العاص بن وائل ، ورأيت أباك .. فوالله لَلْعاص كان أشرف من عفان !.

فما زاد عثمان على أن قال : مالنا ولذكر الجاهلية !!

وعلى قدر فخره بأبيه كان خجله من نسبه إلى أمه وٱجتراء الناس عليه حيث كانت «سِبيّة» مغلوبة على أمرها .. صارت بعد بيعها بعكاظ إلى العاص بن وائل أبيه .

◘ عمرو بن العاص فى مرآة عبد الله بن عباس ◘

قام عمرو بن العاص بالموسم فأطرى[1] معاوية وبنى أميّة ، وتناول بنى هاشم .

ثم ذكر مشاهده بصِفّيْنَ فقال ابن عباس : ياعمرو ، إنك بعت دِينَك من معاوية ، فأعطيته ما فى يدك ، ومنّاك ما فى يد غيره ؛ فكان الذى أخذ منك فوق الذى أعطاك ، وكان الذى أخذتَ منه دون ما أعطيته .

وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى !

فلما صارت مصر فى يدك تتبعك فيها بالعزل ، والتَنقُّص، وكلٌّ راضٍ بما أخذ !

◘ دهاء معاوية ودهاء عمرو !! ◘

سأل عمرو صاحبه معاوية يوماً :

والله ما أدرى ياأمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟!

فقال معاوية :

شجاع إذا ما أمكنتنى فُرْصَةٌ وإن لم تكُن لى فرصةٌ فجَبَانُ

(١) أطرى : مدح وأثنى .

وكذلك كان «عمرو» إلا أنه كان أحوجَ إلى الوُثوب والمجازفة من معاوية .

ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية كما قالا مرة وهما يتساءلان عن العقل .

قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟

قال : ما دخلت فى شىء قط إلا وخَرَجْتُ منه .

فقال معاوية : لكنى ما دخلت فى شىء قط وأردت الخروج منه ! كل منهما بدهائه أشبه : عمرو فى اقتحام الطَّموح المغامر !

ومعاوية فى تُؤَدَة المستقر الواثق !

عمْرُو فى «دَفعة العبقرية» . ومُعَاوية فى «رَويّة التدبير الطويل» . كما وضح ذلك أستاذنا عبَاس العقاد .

ولقد أحصى العرب دهاتهم فى الإسلام فعدوا أربعة وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها فى دهائه : فقالوا : إن «مُعاويةَ» للروية . و «عمرو بن العاص» للبديهة . و «المغيرة» للمعضلات .

و «زياد» لكل صغيرة وكبيرة ـ كما أشرت إلى ذلك فى المقدمة ـ.

وقد قيل : إن «عمرو بن العاص» هو الذى وصف نفسه ، ووصف الدُّهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وأنه اجتمع مع «معاوية بن أبى سفيان» مرة ، فقال له «معاوية» : مَنِ الناس ؟

فقال : أنا وأنت ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد .

قال معاوية : كيف ذلك ؟

قال : أما أنت فللتأنى ، وأما أنا فللبديهة .

وأما المغيرة للمعضلات ، وأما زياد فللصغير والكبير .

قال معاوية : أما ذانك فقد غابا ، فهات بديهتك ياعمرو ! قال : وتريد ذلك ؟

فأجابه : نعم !

فسأله أن يخرج من عنده ، فأخرجهم .

فقال عمرو : ياأمير المؤمنين أُسَارّك[1] .

فأدنى معاوية رأسه منه .

فقال عمرو : هذا من ذلك !

من معنا فى البيت حتى أسارّك ؟! إن تفكير عمرو تفكير بديهة حاضرة . وإن تفكير معاوية تفكير روية بطيئة . وهذا هو الفرق بين الداهيتين !

◘ شواهد من بديهته الحاضرة ! ◘

خرجَ يعسّ بالليل وهو أمير على مصر فسمع أناساً يقعون فيه ويتوعدونه ، وعلم أنه إن تركهم إلى غده لم يعرفهم ، ولم يظفر بأجمعهم .

فأقبل عليهم إقبال الخائف الطريد ، وأوهمهم أنه يلوذ بهم ، ويضرع إليهم ألا يسلموه إلى الأمير لأنه يتعقبه ، ويُمعن فى طلبه ، فساقوه إلى باب قصره لا يتخلف أحد منهم طمعاً فى المثوبة ، فأوصلهم بأرجلهم إلى حيث أراد !!

وقتل الروم رجلاً من المسلمين حول الأسكندرية واحتَزّوا رأسه ، وانطلقوا به إلى داخل الحصن ؛ فأقسم أبناء قبيلته لا يدفن إلا برأسه .

قال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم !!

احملوا على القوم إذا خرجوا ، فاقتلوا منهم رجلاً ، ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم ، فلما فعلوا إذا برأس صاحبهم يسقط عليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوه برأسه !

وحسبك من نبوغ ملكة البديهة الحاضرة فى مساجلاته وأجوبته ورسائله وأوصافه أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه قال :

« آمنت بالله ! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد ! » وإذا اجتمع للرجل ذكاء ماض ، وعزيمة ماضية ، ولسان ماض وهوى يمضى فى زمامه ،

---

(١) أفضى إليك بسر .

وينثنى بعد عِرامه ، فذلك الرجل الذى يحسب له حساب فى كل زمان وُجد فيه[1] .

ولكنه أحرى أن يحسب له كل حساب فى أيام الفتن والقلاقل ، واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ، ويستطيع التأليب والتغليب ، وعسير جداً أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله فى غيبة الشيع والأحزاب جد عسير !

◄ كيف كان الداهيتان يتعاملان ؟

« يلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية أنهما كانا لايُضيعان وقتهما فى مِراء يعرفانه ولا يجهلانه .

وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لامُداجاة فيها ، فقال له يوماً : أترى أننا خالفنا عليًّا لفضل منا عليه ؟ لا والله !!

إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها ، وآيم الله لتَقطعن لى قطعة من دنياك أو لَأُنابِذَنَّكَ ...» .

وقد كان كل منهما يفهم صاحبه ويكشفه فما حاجَتهُ إلى المداراة والمداهنة ، وقد رأى عين صاحبه واقعة على أخفى خفاياه ؟!!

عمرو بن العاص وعُمَر بن الخطاب :

خطب سَلْمان إلى عمر بن الخطاب ابنته فلم يَسْتَجِزْ ردّه ، فأنعم له[2] ، وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله بن عمر ، فشكا عبد الله ذلك إلى عمرو بن العاص فقال له : أَفَتُحِبّ أن أصرفَ سلمانَ عنكم ؟

فقال له : هو سَلْمان ، وحالُه فى المسلمين حالُه !

قال : أحتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر ، والكاره له .

قال : وَدِدْنا ذلك .

فمر عَمْرٌو بسلمانَ فى طريق ، فضرب بيده على منكبه ، وقال له : هنيئاً لك أبا عبد الله .

---

(١) عمرو بن العاص للعقاد .

(٢) أنعم له : قال له : نعم .

قال : وماذاك ؟ قال : هذا عمر يريد أن يتواضَعَ بك فيزوجَك . قال : وإنما يزوجنى ليتواضعَ بى ؟! قال : نعم . قال : لا جرَمَ ، والله لا خطبت إليه أبداً !!

فتوح الشام

عمرو فى مواجهة أرطبون الروم

يقول شهاب الدين النويرى فى نهاية الأرب : وفى سنة ثلاث عشرة وجه «أبو بكر» الجنود إلى الشام بعد مُنْصَرفه من مكة إلى المدينة ، فبعث «عمرو بن العاص» قِبَل فلسطين .

وبعث يزيد بن حسنة ، وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ، وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء من «علياء الشام» .

وبلغ الروم ذلك ، فكتبوا إلى هرقل . فخرج هرقل حتى أتى حمصَ ، فأعد لهم الجنود ، وأرسل أخاه إلى «عمرو» فخرج نحوه فى تسعين ألفاً ، فهابهم المسلمون ، وجمع فرق المسلمين واحداً وعشرين ألفاً سوى عكرمة وكان أبو بكر أرسله ردءاً للناس فى ستة آلاف ، فكتبوا إلى «عمرو بن العاص» : ما الرأى ؟

فكاتبهم أن الرأى هو الاجتماع ؛ وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لا يُغْلَب من قلة .

وكتبوا إلى أبى بكر بذلك ، فجاءهم كتابه بمثل ما رأى «عمرو» .

ويقول ابن الأثير : لما انصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد بعد فِحْل إلى حِمص نزل «عمرو بن العاص» وشرحبيل بن حسنة على بيسان فافتتحها ، وصالحه أهل الأردن ، واجتمع عسكر الروم بـ «غزة» و «أجنادين» و «بيسان» إلى «الأرطبون» بـ «أجنادين» فسار «عمرو» وشرحبيل إليهم بها ، واستخلف «عمرو» على الأردن أبا الأعور ، وكان «**الأرطبون**» أدهى الروم وأبعدهم غوراً ، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً ، وبـ «إيلياء» كذلك ، فلما بلغ «عُمَر بن الخطاب» الخبر قال :

«رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظر عم تنفرج ؟!»[1].

وكان «معاوية» قد شغل أهل قيسارية عن «عمرو» ، وجعل «عمرو» علقمة ابن حكيم ومسروقاً العكّى على قتال أهل إيلياء ، فشغلوا من بها عنه ، وتتابعت الأمداد من عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى عمرو ، فأقام عمرو على «أجنادين» لا يقدر من الأرطبون على شيء !، ولا تشفيه الرسل ، فسار إليه بنفسه ، ودخل إليه كأنه رسول ، ففطن به أرطبون وقال : لا شك أن هذا الأمير ، أو من يأخذ الأمير برأيه ، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ، فإذا مر به يقتله ، فأدرك عمرو ، فقال له :

قد سمعت منى ، وسمعت منك ، وقد وقع قولك منى بموقع ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عُمَر إلى هذا الوالى لنكاتفه ، فأرجع وآتيك بهم ، فإن رأوا ما رأيت ، فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه ردَدْتهم إلى مأمنهم ، فقال : نعم .

ورد الرجل الذى أمره بقتله ، فخرج عمرو من عنده ، وعلم الرومىّ بعد مفارقته أنه خدعه . فقال : هذا أدهى الخلق ، وبلغ أمر هذه الواقعة عُمَر فقال : لله درّ عمرو ! ثم التَقَوْا ، واقتتلوا بأجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك ، فانهزم «أرطبون» إلى إيلياء ففتح عمرو «غزة» .

وكتب عمرو إلى عمر بشأن بيت المقدس : «إنّى أعالج عدواً شديداً ، وبلاداً قد ادُّخرت لك فرأيك»[2] .

فعلم عمر أن عمراً لم يقل ذلك ؟ إلا لشيء سمعه . فحضر عمر ودخل الجابية وصالحه أهلها على الجزية ، ولحق أرطبون ومن أبى الصلح بمصر ، فلما ملكها المسلمون قتل .

وقيل بل لحق بالروم ، فكان على صوائفهم ، والتقى هو وصاحب صائفة

---

(١) تاريخ ابن الأثير [٢ : ٣٤٦] وما بعدها .
(٢) نهاية الأرب [جـ ١٩] .

المسلمين[1] ، ومع المسلمين رجل من قريش[2] ، فقطع أرطبون يده ، وقتله القرشى[3] ، وفيه يقول ويشير إلى يده :

فإن يكن أرطبونُ الروم أفسدها ... فإن فيها بحمدِ الله منتفَعَا
وإن يكن أرطبون الروم قطّعها ... فقد تركت بها أوصالهِ قطَعَا

◘ فتح مصر وإنشاء الفسطاط على يديه ! ◘

وقد كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص : ويقول النويرى : والصحيح أنها فتحت قبل عام الرمادة ، وكان عام الرمادة فى سنة ثمانى عشرة ؛ فإن عمرو بن العاص حمل منها الطعام إلى المدينة فى بحر القلزم ، وقد روى ابن عبد الحكم فى فتوح مصر أنه لما قدم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى الجابية قام إليه عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ وخلا به فقال : ياأمير المؤمنين ، ائذن لى أن أسير إلى مصر ، وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهى أكثر أهل الأرض أموالاً ، وأعجز عن القتال والحرب[4] .

فتخوف عمر على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ، ويهون عليه فتحتها حتى ركن لذلك . وتحقق الفتح على يديه .

◘ صورة من دهاء عمرو !! ◘

لما فتح العرب حصن بابليون أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم قد وَلَجْتُم بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضينا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ومعهم من العُدد والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع منهم ..

فلما أتت رسل المقوقس عَمْراً حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، وقال لأصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ، ويستحلون

(١) الصائفة : غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيْفاً لمكان البرد والثلج من الروم .
(٢) ابن الأثير والطبرى . « من قيس يقال له : ضريس » .
(٣) الطبرى وابن الأثير : « القيسى » .
(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٥٣ وما بعدها .

ذلك فى دينهم، وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين ، ثم ردهم عمرو ، وأجابه مع رسله : إنه ليس بينى وبينكم إلّا إحدى ثلاث خصال :

١ ــ إما أن دخلتم فى الإسلام وكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا ، وعليكم ما علينا .

٢ ــ وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون !

٣ ــ وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه ، قال : كيف رأيتم هؤلاء ؟

قالوا : رأينا قوماً ، الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، ولا نَهْمَة ؛ إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على الركب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد .

يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم .

فقال المقوقس : والذى يُحلَف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم ، إذا أمكنتهم الأرض وقوُوا على الخروج من موضعهم .

ثم رد رسله إلى المسلمين ، أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم .

وهنا يرى عمرو أن خطته قد نجحت ، فيستخدم ذكاءه ودهاءه فى إدخال الرعب على المقوقس !

لقد بعث عمرو بن العاص عشَرة نفر أحدهم «عبادة بن الصامت» وأمره أن يكون متكلمَ القوم ، وألا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلا إلى إحدى هذه الثلاث خصال .

فلما دخلوا على المقوقس ، تقدم «عبادة بن الصامت» فهابه المقوقس لسواده ! فقال : نَحُّوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى !

فقالوا جميعاً : إن هذا الأسودَ أفضلُنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرُنا ، والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله !

قال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟!

قالوا : إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس يُنكَر السَّوادُ فينا !

فقال المقوقس لعُبادَة : تقدم ياأسود ، وكلمنى برفق ؛ فإنى أهاب سوادَك ، وإن اشتد كلامُك علىّ ازددت لذلك هيبة !

فتقدم إليه عبادة فقال : قد سمعت مقالَك ، وإن فيمن خلّفتُ من أصحابى ألفَ رجل كلهم أشد سواداً منى ، وأفظع منظراً ، ولو سمعتهم ورأيتهم لكنت أهيبَ لهم منى ، وأنا قد ولّيت وأدبر شبابى ، وإنى بحمد الله مع ذلك ما اهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمّتنا الجهاد فى سبيل الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا لمن حارب الله لرغبته فى دنيا ، ولا طلباً للاستكثار منها ؛ إلا أن الله ـ عز وجل ـ أحلّ ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك إلا درهماً ؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذى بيده ، وبلّغه ما كان فى الدنيا ، لأن الدنيا ليست بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، وإنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا ـ عزّ وجَلّ ـ وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك به جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضا ربه ، وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس منه ذلك ، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟!

لقد هبت منظره ، وإن قوله لأَهْيَبُ عندى من منظره !! إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض[1] ، ما أظن أن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها !

إنه الدهاء يفعل الأعاجيب فى النفوس !

وهكذا كان دهاء «عمرو» سلاحاً يُشهره فى المواقف الصّعبة فلا يخذله ، ولا يتخلى عنه !

◄ عمرو وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ:

قال لعثمان وهو على المنبر :

ياعثمان ، إنك قد ركبت بهذه الأمة نهابير[2] من الأمر ، وزُغْتَ وزاغوا ، فاعتدِلْ أو اعتزل .

وقال له عثمان ـ رضى الله عنه ـ ذات يوم :

قم فاعذرنى عند الناس فقد كثر طعنهم علىّ ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر النبى ـ ﷺ ـ، وما أكرمه الله به ، ثم قال : إنى قد صحبتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ورأيته ، وقد سبق منكم من سبق ، فرأى ما لم أرَ ، فرأيت **السَّعَةَ** تكون فيعمها الناس دون نفسه ، وتكون **الخصاصة**[3] فيخصُّها نفسه وأهل بيته دون الناس .

ثم وَلِى الناسَ أبو بكر فسلك سبيله ، حتى خرج من الدنيا فى ثوب ليس له رداء .

---

(١) خراب أرض الظالمين ، وتعمير أرض المهادنين أو الداخلين فى دين الله وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان !

(٢) نهابير : مهالك جمه نهبور ، ومعناها فى اللغة : ما يشق على الراكب قطعه من الرمال .

(٣) السّعة : الخير الشامل . والخصاصة : الفقر والشدة والمجاعة .

ثم وليها ابن «حنتمة»[1] ، فانبعجت له الدنيا[2] ، فقمَص منها قمصاً[3] ، ومصها مصًّا ، وجانب غمرتها[4] ، ومشى فى ضحضاحها[5] ، حتى خرج مشمراً ما ابتلت عقبه !

أكذاك أيها الناس ؟ قالوا : اللّٰهم نعم !

ثم وَلِى عثمان ، فقلتم تلومونه ، وقال يعذِرُ نفسه ؛ فعلى رِسْلِكم ، فرُبّ أمرٍ تأخيره خير من تعجيله ، وإن الحسير يبلغ . والهزيل يبقى . ثم جلس .

فقال عثمان ـ رضى الله عنه ـ: مازلت منذ اليوم فيما لا ينفع أهلك !

قال : فإنى قلت بما أعلم .

(١) حنتمة : هى بنت هشام بن المغيرة وأم عمر بن الخطاب ، وابنة عم أبى جهل . النهاية .

(٢) شُقت وكشفت له كنوزها .

(٣) نفر منها .

(٤) غمرتها : الماء الكثير .

(٥) الضحضاح : الماء القليل .

◘ عمرو بن العاص وعلى ـ رضى الله عنهما ـ ◘

عندما التقى الجيشان فى وقعة صِفِّين . ودارت المعارك ضارية مثيرة ، وطالت ، واستطالت حتى عجت الأرض بالدماء، وغطتها جثث الضحايا جزع الإمام على لكثرة الضحايا ...!!

وفى سبيل أن يحسم الأمر ويصون الدم ، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه[1] ، ليخرج إليه ، فما خرج ، فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه : «يامعاوية ، لِمَ تقتل الناس بينى وبينك ؟»

ابرز إلىّ ، فأينا قتل صاحبه تولى الأمر من بعده ! واستشار معاوية صديقه «عَمْراً» فقال له :

ـ لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضبته مشورة عمرو ، ووجد فيها إحدى مكايده للتخلص منه ؛ لأنه يعلم أن «علياً» ما بارز أحداً إلا صرعه !! وقال لعمرو : طمعت فيها بعدى !!

ولكى يبعد «عمْرو» هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

ـ إنى خارج إلى «علىّ» غداً فمبارزه .

وفى اليوم التالى ، وقد تأهب كلا الجيشين لاستئناف القتال ، وقف «عمرو» ونادى «الإمام علياً» لمبارزته .. وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوى بسيفه على «عمرو» ، ليجلله به قذف بنفسه على الأرض ، وتمدد عليها فى استسلام ، وفزع وضراعة ، فألقى عليه «الإمام» نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً .

ولو حفظ «عمرو» للإمام هذا الصنيع الجليل ، وتخلى عن شغفه بالإمارة لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى .. لكنه لم يفعل ، بل إنه حين أنهك القتال

---

(١) تاريخ الأمم والملوك [جـ ٤ ص ٢٩] . وانظر كذلك الإمامة والسياسة لابن قتيبة [جـ ١ ص ١٠٣] .

جيش الشام ، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام ، وصار واضحاً أنه لم يَبْقَ سوى ساعة أو بعض ساعة ؛ ثم ينتهى إلى الأبد تمرد معاوية ومن معه .. عندئذ ومعاوية يقرع سِنَّ الندم، ويحدق فى وجه «عمرو» يَسْتَجْدِيه الرأى والحيلة فتح «ابن العاص» جعبته ليخرج منها جديداً !

قال لمعاوية : لقد أعددت بحيلتى أمراً ادخرته لهذا اليوم . ترفع المصاحف ، وتدعو إلى تحكيم القرآن !

فإن قبلوا التحكيم اختلفوا .. وإن ردوه اختلفوا !! .

وقد حدث ما أراده عمرو !!

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف وتسير بها صوب معسكر العراق حتى نشب الخلاف !

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خدعة ، فحذر قومه منها !! لكن الأشعث بن قيس ونفراً من القراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله .

قال الإمام : «أنا أحق من يُجيب إلى كتاب الله ، ولكنى أعرَفُ بهم منكم .. إنها كلمة حق يراد بها باطل !!

وإنى ما قاتلتهم إلا ليدينوا بحكم القرآن ، فكيف أرفض اليوم حكمه ؟!

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن . إنما هى الخديعة والوهن والمكيدة !

فأعيرونى سواعدكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه !» .

لكن المعارضة بلغت أوجها فى سرعة مريبة، وتولى الأشعث كِبْرها .

ويروى الطبرى أيضاً[1] : أنه لما بايع الحسن معاوية ، ودخل هذا الكوفة ، واجتمع بالناس فى المسجد أراد معاوية أن يخطب الناس فأشار عليه عمرو أن يقدم الحسن ليخطب الناس ، ولكن معاوية كان سيِّئَ الظن بعمرو فقال له : أما تريدنى أن أخطب الناس ؟

---

(١) تاريخ الأمم والملوك [جـ ٤ ص ١٢٤] .

فأجاب عمرو : بلى ، ولكنى أريد أن يبدو عِيّ الحسن للجماهيل !

وألحّ على معاوية ، فاستجاب ، وقدم الحسن ، فأجاد هذا فى خطابه القصير ، وغمز فيه معاوية ، وختم خطابه بقوله تعالى : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ .

[سورة الأنبياء : ١١١]

فاغتاظ معاوية من عمرو ، وقال له : هكذا أردت يابن العاص !! ولما كمل الأمر لمعاوية أعطى مصرَ لعمرو طُعمةً جزاء خدماته ، فظل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

◘ عمرو بن العاص ومعاوية ◘

كان عمرو بن العاص من أعوان معاوية الذين اعتمد عليهم فى تذليل الصعاب ، وكبح جماح المتمردين .

وقد أدرك «معاوية» بفطنته ودهائه أن أحاسيس عمرو تجاهه لم تكن ودية ، مثلما كانت أحاسيس معاوية تجاه عمرو ، ولكنه كان يدرك تماماً مدى حاجته لمثل هذا الداهية . بينما كان عمرو هو الآخر يدرك مدى ما يمكن أن يجنيه من ثمار فى مقابل ما يؤديه لمعاوية من خدمات . هذا الإدراك المتبادل من الداهيتين جعلهما يتعاونان ويتبادلان المنفعة ، ويُخْفى كل منهما نواياه تجاه زميله .

يحدثنا ابن طباطبا عن هذا الدهاء فيقول : «ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو ابن العاص أحد الدهاة المشاهير ، وقد كان عمرو عندما نشبت الفتنة بين على ومعاوية معتزلاً للفريقين ، فرأى معاوية أن يستميله ، ويتقوى به ، ووعده ولاية مصر ، ومصر كانت الأمل الذى تهفو له نفس ابن العاص .

وبهذا انضم عمرو إلى معاوية ، وساعده مساعدة كبيرة ، مع أنه لم يكن بينهما مودة قلبية ، وكانا يتباغضان سراً ، وربما ظهر ذلك على صفحات وجهيهما ، وفلتات ألسنتهما .

ومما يدل على ذلك: أن معاوية سأل يوماً جلساءه ، وفيهم عمرو : ما أعجب الأشياء ؟

فكانت إجابة عمرو قوله : «أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق ..» .

وكان بذلك يُعَرّض بعليٍّ ومعاوية .

فقال معاوية يرد عليه : «إن أعجب الأشياء أن يُعطَى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يُخاف .

وكان معاوية يعرّض بعمرو وولاية مصر .

ومع ما كان بين الاثنين ، فقد اتسعت نفس معاوية لعمرو واستفاد منه ، وأفاده»[1] .

(١) الفخرى [ص ٩٣] .

▣ كلمة إنصاف .... ▣

أبو موسى الأشعرى وبغض الشيعة له بعد التحكيم !!

ولّاه عمر البصرة ، وعثمان الكوفة ، وكان أحد الحكمين يوم صفين .

كتب معاوية إلى أبى موسى بعد الحكومة ـ وهو يومئذ بمكة عائذ بها من على ـ رضى الله عنه ـ، وإنما أراد بكتابه أن يضمه إلى الشام :

«أما بعد ؛ فإنه لو كانت النية تدفع خطأ لنجا المجتهد ، وأُعْذَر الطالب ، ولكن الحق لمن قصد له فأصابه ، ليس لمن عارضه فأخطأه .

وقد كان الحكمان إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما .

وقد اختار القوم عليك ، فاكره منهم ما كرهوا منك ، فأقْبل إلى الشام ، فهى أوسع لك .

فكتب أبو موسى إليه :

«أما بعد ... فإنى لم أقل فى علىٍّ إلا بما قال صاحبك فيك ، إلا أنى أردت ما عند الله ، وأراد عمرو ما عندك .

وقد كانت بيننا شروط ، والشورى عن تراضٍ فلما رجعَ رجعتُ .

فأما الحكمان ، وأنه ليس للمحكوم عليه الخيار ، فإنما ذلك فى الشاة والبعير ، فأما فى أمر هذه الأمة ، فليس أحد آخذاً لها بزمام ما كرهوا .

وليس يذهب الحق لعجز عاجز ولا مكيدة كائد . وأما دعاؤك إياى إلى الشام ، فليست لى رغبة عن حرم إبراهيم ـ عليه السلام» .

فلما بلغ عليًّا ـ رضى الله عنه ـ قولُه رقّ له ، وأحب أن يضمه إليه ، فكتب إليه :

«أما بعد ؛ فإنك رجل أمالك الهوى ، واستدرجك الغرور !

وحتى تتضح للقارىء الكريم صورة أبى موسى الأشعرى أحد طرفى «التحكيم» نسوق ماقاله الإمام الذهبى عنه فى ذخائر العرب . سير أعلام النبلاء» فبضدها تتميز الأشياء» .

قال الواقدى وغيره : قدم أبو موسى مكة ، وحالف أبا أُحيحة الأموى . وأسلم بمكة وهاجر إلى الحبشة .

وهو معدود فيمن قرأ على النبى ـ ﷺ ـ أقرأ أهل البصرة وأفقههم فى الدين .

وفى الصحيحين عن أبى بردة بن أبى موسى ، عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدخلا كريما** » .

وقد استعمله النبى ـ ﷺ ـ ومعاذاً على زبيد ، وعدن ، وولى إمرة الكوفة لعمر ، وإمرة البصرة .

قال ابن سعد : أسلم أبو موسى بمكة ، وهاجر إلى الحبشة ، وأول مشاهده خيبر ، ومات سنة اثنتين وأربعين .

وقال أبو أحمد الحاكم : أسلم بمكة ، ثم قدم مع أهل السفينتين[1] بعد فتح خيبر بثلاث ، فقسم لهم النبى ـ ﷺ ـ ولى البصرة لعمر وعثمان ، ووَلى الكوفه ، وبهامات .

وقال مسرور : كان القضاء فى الصحابة إلى ستة : عمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وأُبَىّ ، وزيد ، وأبى موسى .

قال الحسن البصرى فى ولاية البصرة : ما قدمها راكب خير لأهلها من أبى موسى

وعن الشعبى قال : كتب عمر فى وصيته : ألا لا يقر لى عامل أكثر من سنة وأقروا الأشعرى أربع سنين .

ويقول الإمام الذهبى : ولا ريب أن غُلاة الشيعة يُبغضون أبا موسى ـ رضى الله عنه ـ لكونه ما قاتل مع على ، **ثم لما حكّمه علىّ على نفسه عزله ، وعزل معاوية ، وأشار بابن عمر ، فما انتظم من ذلك حال** .

وذكر الإمام الذهبى أن معاوية كتب إليه :

أما بعد .. فإن عمرو بن العاص قد بايعنى على ما أريد ، وأقسم بالله لئن

---

(١) يريد رجوعه بعد هجرته .

بايعتنى على الذى بايعنى ، لأستعملن أحد ابنيك على الكوفة ، والآخر على البصرة ، ولا يُغْلَق دونك باب ، ولا تُقْضَى دونك حاجة .

وقد كتبت إليك بخط يدى ، فاكتب إلىّ بخط يدك . فكتب إليه :

أما بعد : فإنك كتبت إلىّ فى جسيم أمر الأمة ، فماذا أقول لربى إذا قدمت عليه ؟!

ليس لى فيما عرضت على من حاجة . والسلام عليك .

قال أبو بردة :

فلما ولى معاوية أتيته ، فما أغلق دونى باباً ، ولا كانت لى حاجة إلا قضيت .

قلت : قد كان أبو موسى صواماً قوَّاماً ربانياً زاهداً عابداً ، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر ، لم تغيره الإمارة ، ولا اغتر بالدنيا .

وروى حميد بن هلال عن أبى بُردة قال : حدثتنى أمى قالت :

خرج أبو موسى حين نُزِعَ عن البصرة ، ما معه إلا ستمائة درهم عطاء لعياله .

وروى الزبير بن الحريث عن أبى لبيد قال :

ما كنا نشبه كلام أبى موسى إلا بالجزار الذى ما يخطىء المِفْصل .

وعن الحسن قال :

كان الحكمان : أبا موسى وعمراً ؛ وكان أحدهما يبتغى الدنيا والآخر يبتغى الآخرة .

◄ ماذا رأى عمرو عند الاحتضار ؟!

روى ابن عباس قال :

دخلت على عمرو بن العاص وقد احْتُضِر ، فقلت : ياأبا عبد الله ، إنك كنت تقول : أشتهى أن أرى عاقلاً يموت حتى أسأله : كيف يجد ؟ فكيف تجدك ؟

فقال : أجد السماء كأنها مُطْبقةٌ على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنى أتنفس من خُرْتِ إبرة . (ثقبها)

ثم قال : اللـٰهم خذ منى حتى ترضى !

ثم رفع يده فقال : اللـٰهم أمرتنا فعصينا ، ونهيت فركبنا ؛ فلا برىء فأعتذر ، ولا قوىٌّ فأنتصر ! ولكن لا إلـٰه إلا الله ، ثم فاظ (مات) !